عالَم الميزان

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب

(الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها)

من الصفحة ٣٥٢ حتى الصفحة ٣٧٢

للشيخ الإمام

عبد الله سراج الدين الحسيني

بناء على توجيهات ولده

المهندس الشيخ

محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة

وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام

من موقعه الرسمي والوحيد

WWW.SRAJALDEN.COM

قسم مؤلفات الإمام

ـ المؤلفات المكتوبة وقبسات من المؤلفات

مدير الموقع :

الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

عـالَم الميـزان

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

فوزن الأعمال والأقوال يوم القيامة هو حقٌّ ثابت، محقَّق الوقوع لا محالة؛ لإظهار الحق.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمع موزون وهو: العمل، أو جمع ميزان وهو: ما له لسان وكفَّتان، توزن فيه الأعمال والأقوال.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: رجحت حسناته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الذين ظفروا بالبغية، ونالوا غاية الأماني.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: موازين حسناته، بأن رجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ وهذا أعظم الخسران ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فإنهم لما ظلموا بآيات الله تعالى، وضيعوها، ولم يَرْعوها حقها: باتباع ما جاء فيها؛ أضاعهم الله تعالى، وأوقعهم في الخسران المبين، وهو خسارة أنفسهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

فلا يثقل الميزان إلا بالحسنات والأعمال الصالحة، فإنَّ بها صلاحَ النفس وصلاح الأهل وصلاح المجتمع، وبها يَصلح الإنسان لأنْ يَدخل في حضرة الله تعالى، وأَنْ يتقرب بها إلى الله تعالى، ويكون في جنة الله عز وجل، ويحلَّ ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾.

ومن جملة الحسنات المثقلة للميزان: الإكثار من التسبيح والتحميد.

وفي الحديث قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كلمتان: خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده؛ سبحان الله العظيم».

وروى النسائي، وابن حبان وصححه ـ واللفظ له ـ عن ثوبان رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بخ بخ، خَمْسٌ ما أثقلهنَّ في الميزان: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يُتوفَّى للمرء المسلم فيحتسبُه» أي: فيصبر ويحتسب الأجر عند الله تعالى.

ومما يُثْقل الميزان: حُسْنُ الخلق، وطول الصمت.

فقد روى ابن أبي الدنيا، والبزار وأبو يعلى، والطبراني، والبيهقي بسند حسن، عن أنس رضي الله عنه قال: لقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا ذر رضي الله عنه فقال: «ألا أدلك على خصلتين: هما خفيفتان على الظهر، وأثقل في الميزان من غيرهما»؟

قال: بلى يا رسول الله.

قال: «عليك بحسن الخلق، وطول الصمت ـ فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما».

وروى أبو داود، والترمذي وصححه، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من شيء يُوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من خُلُقٍ حسن».

ومما يثقل به الميزان: كثرة الدعاء.

فقد روى أبو داود وغيره، عن أبي الأزهر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل قال: «بسم الله، وضعت جنبي لله، اللهم اغفر لي ذنبي، وأخْسىء شيطاني، وفُكَّ رِهاني، وثَقِّل ميزاني، واجعلني في النديِّ الأعلى».

ومما يثقل به الميزان: أثر العلم النافع.

فقد أخرج ابن عبد البرِّ، عن إبراهيم النخعي قال: (يُجاء بعمل الرجل فيوضع في كِفَّةِ ميزانه يوم القيامة فَيَخِفُّ، فيجاء بشيء أمثالِ الغمام فيوضع في كفة ميزانه فترجح كفته.

فيقال له: أتدري ما هذا؟.

فيقول: لا.

فيقال له: هذا فضل العلم الذي كنت تعلِّمه الناس).

وأخرج ابن المبارك في: (الزهد) عن حمَّاد بن أبي سليمان قال: (يجيء رجل يوم القيامة فَيَرىٰ عمله مُحضراً، فبينما هو كذلك إذ جاءه مثل السحاب حتى يقع في ميزانه.

فيقال له: هذا ما كنتَ تعلِّم الناس من الخير، فَوُرِث بعدك

فأُجِرْت فيه). اهـ. ذُكر ذلك في: (الدر المنثور) وغيره.

وقال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾.

أصل القَرْع الصوت الشديد، ومنه: قوارع الدهر أي: شدائده.

والقارعة هي اسم من أسماء القيامة، سميت بذلك: لأنها تَقْرع القلوب بالفزع والأهوال والشدائد، أَوْ بسبب صوت إسرافيل عليه السلام حين ينفخ في الصور نفخة الإماتة، فتموت الخلائق من شدة صوت نفخته.

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ فيه تهويل لأمرها وتعظيم لداهم خطرها ـ والمعنى: أنها فاقت جميع القوارع في هولها وشدتها، فهي القارعة كلَّ القارعة التي لا تُشابهها أيُّ قارعة.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ أي: لا علم لك بكُنْهِها، لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها الفهم، ولا يتصور عِظمها الوهم، بل هي أشد وأعظم، وأدهى وأمرُّ.

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ والفَراش هو الذي يتهافت في النار، سميت بذلك لتفرشها وانتشارها، وهكذا الناس يَومئذ يُبعثون من قبورهم، يكونون كالفراش المبثوث: المتفرق المتطاير الثائر المنتشر.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ أي: كالصوف

المندوف المتطاير، بعد أن كانت عظيمة صَلدة صلبة.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ذاتِ رضىً، تُرضي صاحبها كل الرضى، أو مَرضية يَرضى بها صاحبها كل الرضى ـ اللهم اجعلنا منهم.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ أي: مأواه الذي يُؤويه: هو الهاوية أي: النار، سميت بذلك لأنها مَهواة عميقةُ القعر، يهوون فيها على رؤوسهم سبعين خريفاً ـ والعياذ بالله تعالى.

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ أي: وما أدراك ما الهاوية! إن أمرها عظيم وخطرها جسيم.

﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ أي: قوية الحرارة، أليمة العذاب.

وفي هذا تحذير وتخويف للعباد لئلا يسلكوا طريق تلك النار الحامية، بل يُباعدوا أنفسهم عن اقتراف أسباب عذابها: من المحرمات، والمخالفات التي نهى الله تعالى عنها، لأنَّ عذاب تلك النار أليم، وإنها نار الحميم، وإنها نار الله الموقدة، فلا يتخذوها هزواً، ولا يستهينوا بجانبها، ولا يفعلوا المحرمات فيقعوا في أشراكها وأوديتها.

فليحذر العاقل، وليعلم الجاهل، ولينتبه الغافل أنها الهاوية، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾.

ولقد بيَّن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال الله تعالى له: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ بيَّن حَماوة تلك النار، وشدة حرها، فقال كما جاء في: (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله

عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ناركم هذه ـ ما يوقِدُ بنوا آدم ـ جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم».

قالوا: والله إنْ كانت لكافية ـ أي: إنّها إن كانت في حرارتها كافية ـ.

قال: «إنها فُضِّلت عليها بتسعةٍ وستين جزءاً، كلهنَّ مِثْل حَرِّها».

قال الحافظ المنذري في: (الترغيب): ورواه أحمد، وابن حبان في: (صحيحه) والبيهقي فزادوا فيه: «وضُربت ـ أي: نار الدنيا ـ بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جَعل الله فيها منفعة واحدة».

وهنا قف واعتبر، واعلم ما للبحر المحيط في كُرة الأرض من تعديلاتٍ في أجواء الأرض، وتأثيرات على ما في الأرض، حتى على نارها، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة.

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه ذكر ناركم هذه فقال: «إنها لجزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وما وصلت إليكم حتى ـ أحسبه قال: ـ نُضِحت مرتين بالماء ـ أي: ماء البحر ـ لتُضيء لكم، ونار جهنم سوداء مظلمة» رواه البزار، والحاكم وصححه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم»[1].

---

(١) قال في: (الترغيب): رواه أحمد ورواته رواة الصحيح. اهـ هذا وإن =

فهي نار حامية حقاً وحقيقة ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴾.

فلا تهزل أيُّها المسلم في آيات الله تعالى، وتتخذها هزواً فتقول: هذا من باب الإيهام في التخويف، وليس من باب الحقيقة ـ بل هو من باب الحق والحقيقة.

قال الله تعالى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ الآية.

فإنزال القرآن بالحق هو: حفظ الله تعالى له من تلاعب الشياطين حين أنزله، وقد نزل به الروح الأمين بجمهرة من الملائكة، حتى انتهىٰ إلى قلب السيد الأكرم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، المعصوم بعصمة ربِّ العزة ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾.

وأما معنى: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ أي: ونزل هذا القرآن ببيان الحق الكاشف عن حقيقة الأمور، فلا هزل فيه ولا لهو، ولا عبث ولا باطل.

قال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ الآيات.

= تفاصيل الكلام على أوصاف جهنم وشدة حرها، وألوان عذابها، وجميع ما يتعلق بها وبأهلها؛ سوف يأتي ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب ـ إن شاء الله تعالى.

وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه؛ بسبب اتباعهم الحق الذي جاءت به الرسل صلوات الله تعالى عليهم من عند الله تعالى الملك الحق، وطبقوا أوامر الحق في أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم ـ وإن لكل حقٍّ حقيقةً ثابتة يثقل بها الميزان.

وإنما خفت موازين مَن خفَّت موازينه؛ بسبب اتباعهم الباطل، وإنَّ الباطل لا حقيقة له ثابتة، وإنما هو ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾.

ويشير إلى ذلك ما جاء في وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إلى الفاروق رضي الله عنه، حين استخلفه وأوصاه فقال له:

(يا عمر إني قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

يا عمر إن لله تعالى حقاً في الليل ولا يقبله في النهار، وحقاً في النهار ولا يقبله في الليل، وإنه لا يقبل نافلةً حتى تُؤدىٰ الفريضة.

ألم تر يا عمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة: باتباعهم الحق وثقله عليهم ـ وحُقَّ لميزانٍ لا يُوضع فيه غداً إلا حقٌّ أن يكون ثقيلاً.

ألم تر يا عمر أنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة: باتباعهم الباطل وخفَّته عليهم ـ وحُقَّ لميزانٍ لا يوضع فيه غداً إلا الباطل أن يكون خفيفاً.

ألم تر يا عمر أنما أُنزلت آية الرجاء مع آية الشدة، وآية الشدة مع آية الرجاء، ليكون المؤمن راغباً راهباً: لا يرغب رغبةً يتمنى

على الله تعالى ما ليس له، ولا يَرْهَب رهبة يُلقي فيها بيديه ـ أي: بأن يقنط من رحمة الله تعالى ـ.

ألم تر يا عمر أنما ذكر اللهُ تعالى أهلَ النار بسوء أعمالهم، فإذا ذكرتَهم قلتَ: إني لأرجو أن لا أكون منهم، وأنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم، لأنه تجاوز عمَّا كان من سيّىءٍ، فإذا ذكرتهم قُلتَ: أين عملي من أعمالهم).

أي: فتنظر إلى تقاصر أعمالك بالنسبة لأعمالهم، ولكنك ترجو من الله أن يجعلك منهم، ويكرمك بما أكرمهم.

فلا تغرنك نفسك أيها الأخ المؤمن، مهما علتْ بك المراتب، وارتفعتَ في المقامات والدرجات، ومهما زكت نفسك بالأعمال الصالحة، والأقوال الطيبة، وليكن شأنك شأن المؤمنين المقربين، الذين وصفهم الله تعالى في سورة المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

روى الترمذي، عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أنها قالت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهم الذين يزنون ويسرقون؟

قال: «لا يا ابنة الصديق! ولكنهم الذين يُصلُّون ويصومون ويتصدقون، وهم يَخافون أن لا يُتَقبل منهم».

ولفظ أحمد: قالت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر؛ وهو يخاف الله عز وجلَّ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يا بنت الصديق! ولكنه الذي يُصلي ويَصُوم ويتصدق؛ وهو يخاف الله عز وجلَّ».

فهؤلاء لما خافوه، وخافوا أن لا يَتَقَبَّل صلواتهم وصدقاتهم، لاحتمال أنهم قد قصروا في القيام بشرط القبول والعطاء، فلما خافوا من ذلك: أمنهم الله تعالى من جميع ما هنالك يوم القيامة لأن الله تعالى لا يجمع على عبد خوفين ولا أمنين: فمن خافه في الدنيا أَمَّنَهُ في الآخرة، وَمَن أَمِنَهُ في الدنيا أخافه في الآخرة ـ كما ورد في الحديث.

دقَّــة الميزان وأنــواع الموازيــن

قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

في هذه الآية الكريمة: تتجلى عظمة الفضل الإلهي، وحقيّة العدل الرباني، فإنَّ المحاسبة والميزان سوف يأتيان على مثاقيل الحبَّات ومقادير الذرات، لأنَّ الرقيب على أعمال العباد هو الحسيب العليم، الحاسب: هو الله تعالى رب العالمين، الذي لا تخفى عليه خافية.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ أي: ونُحضر الموازين ذاتَ القسط، الذي هو العدل، وهي الموازين المستقيمة كل الاستقامة، فلا يجري فيها ظلم ولا نقص ولا بَخس.

والموازين هنا جمع ميزان: وهو ما يوزن به الشيء، وله كِفَّتان ولسان.

وإنما جمع الموازين إما لتعددها: فهناك ميزان أعمال القلوب، وميزان لأعمال القوالب والجوارح، وميزان لأقوال اللسان، وميزان للإيماءات القولية، وميزان للأخلاق، وميزان لأحوال القلوب، وميزان لأحوال النفوس، وميزان وميزان...

وقيل: جمعها لاعتبار تعدد الأعمال والأقوال الموزونة بها.

وقيل: جمع الموازين مع أنها ميزان واحد لتعظيم شأن الميزان.

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لأجل أهل يوم القيامة.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: فلا يُنقص مما لها شيء، ولا يزاد فيما عليها شيء.

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ ـ أي: صغيرة جزئية ـ ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي: أحضرناها للحساب، ووضعناها في الميزان، لأنه لا يغيب عن علمنا شيء، ولا يُعجز قدرتنا إحضار شيء، فهو سبحانه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير.

وإنما أنَّثَ ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فهو سبحانه لا يظلم العبد مثقال ذرةٍ ـ أي: لا يزيد في عقوبة المسيء مثقال ذرة فوق إساءته وعقابه، ولا يُنقص من أجر المحسن مثقال ذرة من حسنته وثوابه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الذرَّة رأس نملة حمراء.

وقال بعضهم: الذرّة كل جزءٍ من أجزاء الهباء الذي يكون في الكوّة؛ إذا كان فيها ضوء شمس.

ومن المعلوم أن هذا شيء صغير جداً جداً، ولكنه مَثَل ضربه الله تعالى لأقل الأشياء؛ ليبين لعباده أنه لا يظلم أحداً شيئاً من قليل ولا من كثير.

ثم يبين سبحانه سعة فضله وكرمه، بعدما بيّن تمام عدله فقال سبحانه: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ أي: وإن تك تلك الذرَّة الجزئية حسنة يضاعفها إلى عشر أمثالها، إلى سبعين ضعفاً، إلى سبعمائة ضعفٍ، إلى أضعاف كثيرة كما ورد في الأحاديث.

ومع ذلك فإنه سبحانه كما قال: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فما أعظم فضله وما أوسع كرمه سبحانه وتعالى.

روى الإمام أحمد من طريقين، عن أبي عثمان النَّهدي قال: أتيت أبا هريرة رضي الله عنه فقلت له: بلغني أنك تقول إن الحسنة تُضاعف ألف ألف حسنة.

فقال: وما أعجبك من ذلك؟ فوالله لقد سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله ليضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة».

وقد أورد ابن كثير هذا الحديث من طريقين آخرين، أسندهما ابن أبي حاتم.

ومن عظيم فضله سبحانه أَنّ حسنة المؤمن وإنْ دقَّتْ تنفعه في الدنيا والآخرة، وأما الكافر فينعم بها في الدنيا، وأما في الآخرة فلا ينعم بها.

روى مسلم، عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ الآية، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إن الله لا يظلم مؤمناً حسنةً: يُعطى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة.

وأما الكافر فيُعطى بحسناتٍ قد عمل بها في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها» أي: ينعم بها.

وهذا لا يتنافى مع ما ورد من أَنَّ حسنات الكافر تُخفِّف عنه من شدة العذاب لا من مدته يوم القيامة.

والمراد بالحسنات التي تُخَفِّفُ عن الكافر من شدة العذاب: هي الأعمال التي فيها منافع للعباد، أو دفع مضارٍّ، أو رفق بحيوان ونحو ذلك مما لم يشترط فيه الإسلام، وأما تعبداتهم وطاعاتهم التي يزعمونها فإنها لا تُقبل منهم؛ لعدم وجود الإسلام الذي هو أساس في قبولها.

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي: ما عملوا من قربات وطاعات وتعبدات في زعمهم، وأمَّا ما عملوه من نفع للعباد، ودفع الضرر عنهم، والرفق بعباد الله تعالى؛ وبالإنسان وبالحيوان فذلك ينفعهم في الدنيا، ويخفِّف عنهم من شدَّة العذاب في الأُخرى، لا من مدّته ـ كما عليه المحققون، جمعاً بين الأدلة الواردة في ذلك.

وسيأتي تفصيلها في القسم الثاني، حين نتكلم على عالم الجنة وعالم النار إن شاء الله تعالى.

هل الوزن يأتي على الأعمال
أم على كُتُب الأعمال

اختلف علماء السلف رضي الله عنهم في الموزون: أهو الأعمال والأقوال، أم كتب الأعمال والأقوال؟ ولكلٍ وجهة ودليل.

فذهب كثير من العلماء إلى أن الأعمال والأقوال توزن في الميزان.

قال البخاري في: (صحيحه): باب قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وأن أعمال بني آدم وأقوالهم توزن.

وقال مجاهد: القسطاس العدل ـ بالرومية ـ، ويقال: القِسط مصدر المقسط وهو العادل، وأما القاسط فهو الجائر.

ثم روى البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

وبهذا الحديث استدل البخاري على أَنَّ ذات الأقوال والكلمات تُوزن، والأعمال كذلك.

وروى مسلم، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة بُرهان، والصبر

ضياء، والقرآن حجَّة لك أو عليك، كلُّ الناس يغدو فبائع نفسَه: فمعتقُها أو موبِقُها».

وروى الترمذي، عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن رجلاً قعد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله إنَّ لي مَمْلوكين يَكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يُحسَب ما خانوك وعصوك وكذبوك: وعقابُك إياهم:

فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً: لا لك ولا عليك.

وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك.

وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتُصَّ لهم منك الفضل».

قال: فتنحَّى الرجل فجعل يبكي ويهتف.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أما تقرأ قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾»؟

فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء خيراً من مُفارقتهم، أُشْهدكَ أنهم كلَّهم أحرارٌ.

وروى الطبراني في: (الأوسط) عن جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أوَّل ما يوضع في ميزان العبد

نفقته على أهله»[1] ـ يعني: أنه يؤجره الله تعالى عليها إذا أنفقها على أهله وهو يحتسبها كما ورد.

وروى أبو داود وغيره، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ما مِنْ شَيءٍ أثقل في الميزان مِنْ حُسن الخُلق».

فهذه الأحاديث تدل على أَنّ الأعمال والأقوال والأخلاق هي التي توزن في الميزان.

وقد يَرِد على ذلك إشكال وهو: أن الأعمال والأقوال هي أعراض، فكيف يأتي عليها الوزن وتُوزن في الميزان؟.

والجواب عن ذلك كما قال المحققون من أهل العلم والمعرفة هو: أن هناك عالَماً يُسمَّى: **عالم المثال** تتمثل فيه جميع المحسوسات والمعاني، والأعمال والأقوال حسب المناسبات.

فهناك تتمثل الأعمال الصالحة، والأقوال الطيبة بصورة حسنة نيِّرة.

وهناك تتمثل الأعمال الخبيثة بصورٍ سيئةٍ قبيحةٍ مُظلمة، كل ذلك على حسب المناسبات لتلك العوالم التي تتمثل فيها.

والكلام على المثال وتفاصيله أوضحناه في كتابنا: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام)، وكتابنا: (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) وقد تقدم في هذا الكتاب البحث في تمثل الأعمال يوم القيامة بصور مختلفة.

---

(١) انظر: (ترغيب) المنذري.

وذهبت طائفة من العلماء إلى أَنّ الذي يوزن يوم القيامة هو: كتب الأعمال والأقوال، واستدلوا على ذلك بحديث البطاقة المشهور.

روى الإمام الترمذي في: (سننه) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله عز وجل سَيُخَلِّص رجلاً من أُمتي على رؤوس الخلائق، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجلٍّ مدُّ البصر.

ثم يقول الله تعالى له: أتنكر من هذا شيئاً؟

أظلمكَ كتبتي الحافظون؟

فيقول: لا يا ربِّ.

فيقول: أفلك عذر؟

فيقول: لا يا ربِّ.

فيقول الله عزّ وجل: بلى إنَّ لك عندنا حسنة ـ فإنه لا ظلم عليك اليوم.

فتُخرَج بطاقة فيها: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

فيقول الله له: احضُر وزنكَ.

فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟

فيقول الله تعالى: إنك لا تُظلم.

فتوضع السِّجلات في كِفة، والبطاقة في كِفة ـ فطاشتْ السجلات وثقلت البطاقة؛ ولا يَـثِـقُل مع اسم الله تعالى شيء».

فهذا الحديث صريح في أَنّ الذي يُوضع في الميزان هو كتب الأعمال والأقوال.

فإن قيل: كيف رجحت بطاقة شهادة هذا على تلك السجلات المليئة بالذنوب، مع أَنَّ جميع العصاة من المسلمين عندهم هذه الشهادة، ولم تترجح على كتب معاصيهم وذنوبهم؟

فالجواب عن ذلك:

إنَّ كلمة الشهادتين قد تكون هي بها الإسلام، وقد تكون حسنة من الحسنات التي أتى بها صاحبها بعد الدخول في الإسلام:

فمن كان كافراً فقال: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، أو قال: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، ودخل بها في الإسلام، فإن هذه الشهادة وهي شهادة الإسلام تَهْدِم ما قبلها من الذنوب والمعاصي:

كما جاء في: (صحيح) مسلم، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له حين جاء يبايعه على الإسلام: «أما علمت أَنّ الإسلام يَهْدم ما قبله، وأَنّ الهجرة تهدم ما قبلها، وأَنّ الحج يهدم ما قبله» الحديث.

وأما من كان مسلماً وتشهَّد أَو هلَّل فإنَّ ذلك يُعتبر حسنة بل من أكبر الحسنات.

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في: (مسنده) عن أبي ذرٍ رضي الله عنه أنه قال: قلت يا رسول الله: أوصني.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا عَمِلتَ سيئةً فأتْبعها بحسنة تمحُها».

قال: قلت: يا رسول الله أمِنَ الحسنات لا إلَه إلا الله؟

قال: «هي: أفضل الحسنات».

والمعنى: أَنّ لا إلَه إلا الله تمحو من السيئات على حسب إخلاص قائلها فيها، كما هو شأن سائر الحسنات، بل هي أفضل الحسنات، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية.

فصاحب البطاقة الوارد ذكره في الحديث السابق ـ فيه أقوال:

القول الأول: يحتمل أنه كان كافراً ثم أسلم في آخر عمره، وشهد أن لا إلَه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وخُتِمَ له بذلك، فحينئذ يكون بها إسلامه، والإسلام يهدم ما قبله من الذنوب.

والقول الثاني: أَنّه كان مسلماً لكنه مسرف على نفسه، بكثرة ذنوبه التي ملأت تسعة وتسعين سجلاً بالخطايا والذنوب، ولكنه له حسنة كبيرة قد تقرَّب بها إلى الله تعالى وهي: **لا إلَه إلا الله محمد رسول الله** المسطورة في البطاقة الصغيرة الحجم، لكنَّ صاحبها قد قالها في آخر عمره، وقد نَطَق بهاتين الشهادتين منيباً إلى ربه، تائباً من ذنوبه، خائفاً من العقاب ومن سوء الحساب، مُقبلاً بقلبه على الله تعالى، خائفاً من ذنبه، راجياً رحمة ربه ـ هكذا كانت خاتمة عمره فكانت المغفرة عاقبة أمره.

والحاصل أَنّ خاتمة هذا الرجل كانت حسنة، وهي الشهادة الصادرة عن قلب منيب، وعن توبة إلى الله تعالى من جميع الذنوب، وعن خوف من الله تعالى أَنْ يعاقبه على ذنوبه، وعن رجاء من الله تعالى أن يَرحمه فيغفر له، وكان له ذلك لأن العبرة بالخواتيم.

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها.

فيكون هذا الرجل هو نظيرَ الرجل الآخر الذي ورد أَنَّه قتل تسعةً وتسعين نفساً، ثم ذهب إلى القوم العابدين ليعبد الله تعالى، تائباً من ذنبه، منيباً إلى الله تعالى بقلبه، فجاءه الموت قَبْل أن ينتهي إلى القوم العابدين، وهناك يأمر الله تعالى الملائكة أَنْ يقيسوا بين الأرض التي خرج منها، والأرض التي أرادها، فإلى أيِّهما أقرب؟ فإذا هو أقرب إلى الأرض التي أرادها بشبر ـ فغفر الله تعالى له وألحقه بالتائبين العابدين.

ورد في: (الصحيحين) عن أبي سعيد رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على راهب ـ أي: عابد غير عالم ـ فأتاه فقال له: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟

فقال: لا ـ فقتله فكمل به مائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجل عالم، فقال له: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟

فقال: نعم، ومَنْ يحول بينك وبين التوبة؟!

انطَلِقْ إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أُناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء.

فانطلَقَ حتى إذا نَصَفَ الطريق أتاه ملك الموت...» إلى تمام الحديث، كما تقدم في بحث لقاء الله تعالى.

فصاحب البطاقة الذي نحن في بحثه، وشمول المغفرة له هو

من جهة حسن العاقبة؛ نظير هذا الرجل الذي قتل مائة نفس، الذي قالت فيه ملائكة العذاب: «إنه لم يعمل خيراً قط»، ولكن قالت فيه ملائكة الرحمة: «إنه جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى».

القول الثالث: قال بعض العلماء: إن صاحب البطاقة أراد الله الغفور الرحيم أن يُكرمه إكراماً خاصّاً، ويُعلن ذلك على رؤوس الخلائق، فغفر له جميع ذنوبه، ومحاها عنه بسبب تلك الشهادة التي تقرَّب بها إلى الله سبحانه.

فهذا من باب الإكرام الإلٰهي الخاصِّ به، كما يُشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم في صدر الحديث: «إن الله تعالى سيخلِّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق».

هذا وإن الله تعالى الغفور الرحيم: يغفر لمن يشاء من المذنبين المرتكبين الذين لم يتوبوا؛ فضلاً منه وكرماً، كما هو الاعتقاد عند أهل السنَّة والجماعة، ويُعذب مَن يشاء من العُصاة المرتكبين، فالأمر عائد إليه سبحانه وتعالى.

* * *